اجتياحات التحول

وعصر اللاطفولة



أ. سامي الحربي
مهتم بالفكر وعلم الاجتماع
تويتر: @tragbki

«إن روحية العصر الحديث لا تتعارض فقط مع الروحية الطفولية -روحية البراءة- بل مع الأطفال أنفسهم لأن التحرر الجنسي قد زرع دمارا هائلا والذي يعكس عدم وجود قناعة بضرورة توريث شيء صالح إلى الجيل الجديد لأن حضارتنا تسير في طريق الموت»

- يوهان ارنولد -

يشكل عصرنا نهاية للجغرافية على مستوى التباعد المكاني، والذي يرتبط بزوال المسافة بين أقطار الأرض من خلال سرعة النقل وتطور وسائله، ونهايةً للجدران الرمزية على المستوى الثقافي، والتي ترتبط بزوال المسافة بين الثقافات من خلال سرعة تنقل المفاهيم وتداخلها وتفجر مصادر التلقي واكتساح مساحات الأسئلة (من نحن؟ ما هو دافعنا؟ إلى أين نمضي؟) وإجاباتها التي تحدد معاني الولادة والحياة والموت.

ومـن سـمات نهايـة الجغرافيـة المكانيـة والمفاهيميـة مسـألة المصيـر المبهـم الـذي يحاصـر الإنسـان علـى كافـة المسـتويات، سـواء كان ذلـك علـى مسـتوى العالـم الخارجـي وأخطـاره الحديثـة المرتبطـة بالحـروب المتطـورة والانتشـار السـريع للأوبئـة ومشـاكل المنـاخ، أو على مسـتوى العوالـم الداخليـة والتـي تشـمل تدميـر المعاييـر الأخلاقيـة الثابتـة وتحديـدات الصـواب والخطـأ التـي تحكـم حركـة الإنسـان وأفـكاره وأقوالـه وأفعالـه.

والمصيـر المبهـم بمسـتوياته الخارجيـة والداخليـة يجتـاح الجسـد وحـدوده وهويتـه عبـر مفاهيـم الجنـدر التـي تحاصـر المعاييـر الثابتـة للبشـرية مـن خـلال إعـادة تعريـف مـا هـو إنسـاني؟ ومـا هـو قابـل للتحويـل؟ ومـن هـو الرجـل؟ ومـن هـي المـرأة؟ ومـا هـي الطفولـة؟ والتـي تحققهـا القـدرات الطبيـة علـى الجسـد مـن خـلال الجراحـة، ومـن خـلال تقديـم الحجـج الأخلاقيـة لذلـك فـي إطـار (التطبيـب- medicalization) وهـي العمليـة التـي يسـتطيع الطـب مـن خلالها تصنيـف الصحيح مـن السـقيم مـن خـلال تصـوره عـن الحقيقـة(١).

إن التصـورات والمؤسسـات الطبيـة ليسـت محايـدة علـى مسـتوى المـرض والتشـخيص، بـل تُعبِّـر عـن نظـام فكـري خـاص يتحـدد عبر المنـاخ الثقافـي السـائد الـذي يسـيطر علـى العالـم الحديـث، والـذي يعطـي أهميـة أكبـر للجسـد كأداة لتشـكيل الـذات، ويعـود ذلـك إلـى تراجـع تأثيـر المرجعيـات الدينيـة والسـرديات السياسـية الكبـرى، وشـعور المـرء بأنـه عاجـز عـن إحـداث تأثيـر فـي العالـم، فتتـم محاولـة إعـادة بنـاء المعنـى مـن خـلال الجسـد، وإحـداث التغييـر والتأثيـر مـن خـلال التأثيـر علـى حجـم جسـده وشـكله ومظهـره بحسـب تحليـلات كـرس شـلنج، كمـا يشـير دايفيـد لبرتـون إلـى أن تغيير الجسـد مـن أجـل تغيير الحيـاة هـو جـزء مـن طموحـات العالـم الحديـث(٢).

ومـن الخصائـص البشـرية القـدرة علـى صياغـة البدائـل حتـى علـى مسـتوى المرجعيـات الدينيـة، وإن كانـت تلـك البدائـل ليسـت متماسـكة ولا تـدوم، ولكنهـا تأخـذ مكانـة المقـدس مـن خـلال الهيمنـة والتأثيـر والتوجيـه والمعاقبـة وخطـورة التشـكيك فـي حقائقهـا، والتـي ترتبـط بحسـب رايـان أندرسـون بالحجـة الغيبيـة الجديـدة والتـي تقـول: «إن النـاس هـم مـا يدّعـون أنهـم عليـه، بغـض النظـر عـن الأدلـة الجسـدية التـي تخالـف أقوالهـم»(٣).

وترتكـز الصياغـة المقدسـة الحديثـة علـى أربعـة أركان أساسـية:

-الدور الجندري.

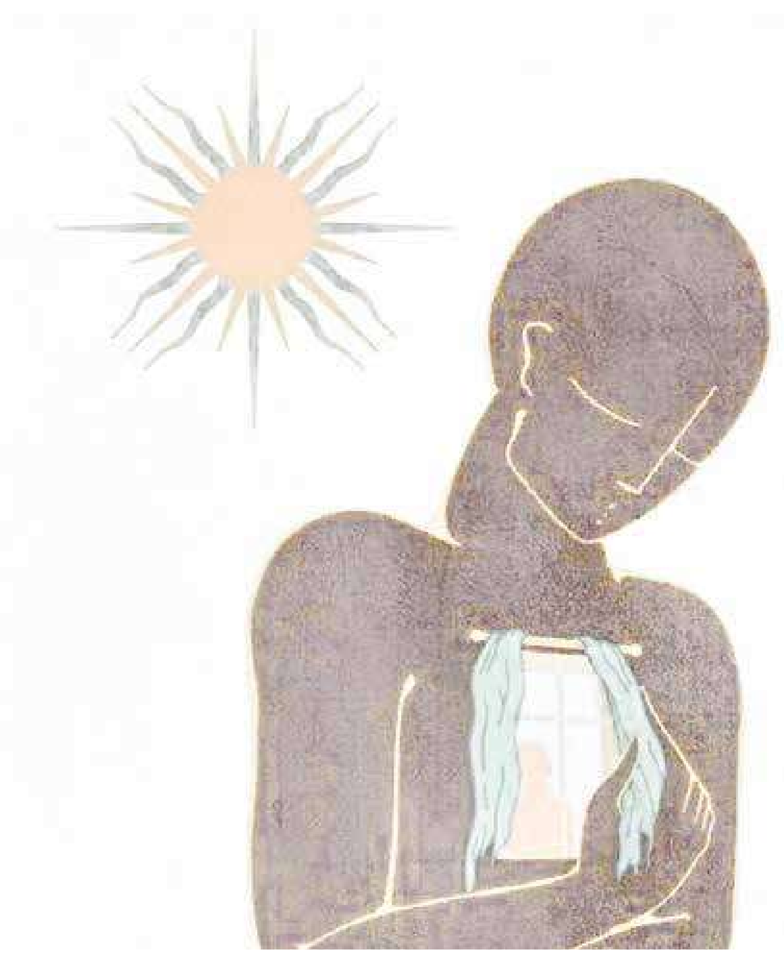
-الهوية الجندرية.

-القلق الجندري.

-إعادة تعيين الجندر.

وعنـد فحـص الصياغـات الثـلاث الأولـى مـن خـلال التحليـل والمعنـى، تأتـي أطروحـة النفسـاني روبـرت سـتولر الـذي يعتبـر مـن أوائـل مـن قـدم تحليـلات حـول مفاهيـم الجنـدر. يشـير سـتولر إلـى أن الـدور الجنـدري هـو مـا يتظاهـر بـه المـرء أمـام الآخريـن علـى المسـتوى الاجتماعـي فـي مسـألة الاختـلاف الجنسـي بيـن الرجـل والمـرأة، وأن الهوية الجندرية هـي التصـور الداخلـي النفسـي فـي مسـألة الاختـلاف الجنسـي، ويشـير إلـى أن القلـق الجنـدري هـو القلـق الدائـم لـدى المـرء مـن الجنـس المحـدد لـه أو الإحسـاس بعـدم الملاءمـة للـدور الاجتماعـي. ثـم تأتـي المرحلـة الأخيـرة وهـي إعـادة تعييـن الجنـدر -أي التحـول





الجنسـي- مـن خـلال التدخـل الجراحـي والعقاقيـر واللبـاس، والتـي تعبـر بحسـب ديفيـد غوفلـر عـن عـدم اسـتقرار معاييـر الجسـد فـي المجتمعـات الحديثـة مـن خـلال انفتاحـه علـى التجريب(٤).

ويمتـد الانفتـاح علـى التجريـب الطبـي والمفاهيـم الجندريـة والتحـول الجنسـي إلـى الطفـل والطفولـة، مـن خـلال نظـام فكـري يعتمـد المناهـج المدرسـية والموسـيقى الشـعبية والأفـلام والبرامـج التلفزيونيـة وكتـب الأطفـال فـي تقديـم صـور وتمثيـلات إيجابيـة ومقبولـة بيـن الأطفـال عـن المتحوليـن جنسـيا، ويشـجع علـى التحـول وتقويـة مسـاحات القلـق الجنـدري بيـن الأطفـال، وتطبيـع مكانـة الأسـرة المتحولـة، وحضـور المتحوليـن للفصـول الدراسـية لقـراءة القصـص، وكل هـذا التركيـز علـى الأطفـال يرجـع سـببه إلـى بحـث حركـة المتحوليـن عـن عصـر بـلا طفولـة، بحيـث لا يوجـد فيـه أطفـال يعتبـر وجودهـم عائقـا مـن ناحيـة الهويـة الجسـدية المسـتقيمة والطبيعيـة بحسـب جوانـا وليامـز(٥).

ومسـاهمة التجريـب الطبـي فـي صياغـة عصـر بـلا طفولـة ترتبـط بإعـادة تعييـن الجنـدر لـدى الأطفـال مـن خـلال تحديـد (التطبيـب) لأمـراض الطفولـة علـى مسـتوى الاختـلاف الجنسـي، وتعديـل ذلـك عبـر (قمـع البلـوغ) مـن خـلال الوسـائل الطبيـة التـي تعمـل علـى وقـف هرمونـات الغـدد التناسـلية فـي الأطفـال.

يعتبـر عالـم النفـس كينيـث زوكـر أحـد أهـم الناقديـن لسـيطرة الأفـكار والأدلـة التـي تقدمهـا حركـة المتحوليـن علـى المؤسسـات الطبيـة، فيمـا يخـص معاييـر التطبيـب حـول أمـراض الطفولـة، ومسـألة القمـع الطبـي للبلـوغ لـدى الأطفـال، والتـي يـرى زوكـر أنهـا متسـرعة وإجراميـة، لأن الحـالات المرضيـة للأطفـال الذيـن كانـوا يريـدون التحـول إلـى جنـس مغايـر لـم تكـن حـالات تعانـي إلا بسـبب البيئـة المحيطـة، واختـلاف الطبـع، والاضطرابـات النفسـية، والتفضيـل الخاطـئ، والعلاقـة غيـر الآمنـة مـع الوالديـن، ولـم تكـن تحتـاج إلا للإرشـاد النفسـي، وتغييـر البيئـة، وتغيـر التعامـل مـن الوالديـن، دون الحاجـة لحلـول حركـة المتحوليـن، والتـي تتمثـل فـي ارتـداء لبـاس جنـس مختلـف، والتدخـل الجراحـي والعقاقيـر.

وأول حـالات زوكـر كانـت حالـة الطفـل فرانـك الـذي يبلغ الخامسـة مـن العمـر، ويريـد التحـول إلـى فتـاة بسـبب مشـاعره الحساسـة وميلـه للعـب المختلـف فـي درجـة خشـونتـه، وشـعوره أن الأولاد سيئون(٦).

يشـرح زوكـر حالـة فرانـك عبـر مسـألة النشـاط البدنـي، والتـي تعتبـر مـن الخصائـص البشـرية، ومعادلـة اتفـاق الطاقـة البدنيـة والميـل إلـى اللعـب القاسـي، وبحسـب زوكـر يكـون الأولاد أنشـط فـي مسـتويات معينـة، ولكـن فـي الحـالات المرضيـة للأطفـال الذيـن لديهـم اضطرابـات الهويـات الجنسـية، يلاحـظ زوكـر أن مسـتويات النشـاط (مقلوبـة،) بحيـث كانـت لـدى الأولاد أقـل مقابـل ارتفاعهـا لـدى الفتيـات.(٧)

يخلـص زوكـر فـي حالـة الطفـل فرانـك إلـى أن الصبـي ذو النشـاط المنخفـض يـرى أن السـلوك الأنثـوي النموذجـي متوافـق مـع طبعـه، وبذلـك يميـل للانضمـام عنـد اللعـب والأنشـطة الخاصـة للفتيات، والحـل العلاجـي فـي حالتـه كان فـي تعريـف فرانـك علـى أطفـال ذكـور يقتربـون منـه فـي مسـألة الطبـع ومسـتوى النشـاط.(٨)

وفـي الحالـة الثانيـة يشـير زوكـر

إلـى علاقـة الاضطرابـات النفسـية مـع اضطـراب الهويـة الجنسـية، كاضطـراب طيـف التوحـد، واضطـراب القلـق المعمم-قلـق مفـرط- التـي تنطـوي علـى الاسـتعداد للاهتمامـات الوسواسـية والهـوس والقلـق حولهـا، ويوضـح ذلـك فـي حالـة ديفيد-يبلـغ مـن العمـر الخامسـة- الـذي أصبـح مهووسـا بـأن يصبـح فتـاة، وقـام والـداه بتهيئـة بيئـة أنثويـة لـه مـن ألعـاب وملابـس الفتيـات، وتابـع زوكـر حالـة ديفيـد حتـى بلـغ سـن ١٢، فأصبـح مهووسا بنجـوم الموسيقى، ثـم اختفـت أعـراض اضطراب الهويـة الجنسـية، فلـم يكـن التسـرع التحولـي حـلا بحسـب زوكر.(٩)

والحالـة الثالثـة هـي حالـة الطفـل تـوم الـذي يبلـغ مـن العمـر أربـع سنوات، وكانـت أمنيتـه أن يصبح فتاة، ويشير زوكـر إلـى أن تـوم يعانـي بسـبب شخصية والدتـه الأنانية، وغيـاب دائـم لـلأب، ومولـد شـقيقة لـه، يلاحـظ زوكـر أن الطفـل أصبـح يشـعر أن والدتـه تخلـت عنـه مـن خـلال الاهتمـام المفـرط بأختـه، وبذلـك أصبـح يريـد أن يكـون فتـاة، ظنّـاً منـه أنـه عندمـا يصبـح فتـاة سـيحظى بالقـدر نفسـه مـن الاهتمـام الـذي حظيـت بـه أختـه.

ويخلـص زوكـر فـي حالـة تـوم مـن خـلال أبحـاث فريقـه إلـى أن هنـاك ارتبـاط بيـن الأولاد الذيـن يعانـون مـن اضطرابـات الهويـة الجنسـية، وبيـن العلاقـة غيـر الآمنـة مـع الأم.(١٠)

ويمتد الانفتاح على التجريب الطبي والمفاهيم الجندرية والتحول الجنسي إلى الطفل والطفولة، من خلال نظام فكري يعتمد المناهج المدرسية والموسيقى الشعبية والأفلام والبرامج التلفزيونية وكتب الأطفال في تقديم صور وتمثيلات إيجابية ومقبولة بين الأطفال عن المتحولين جنسيا



المراجع:

١-المفاهيم الأساسية لعلم الاجتماع-جون سكوت-ص١٠٩-١١٠.

٢- كتاب الجسد والنظرية الاجتماعية-كرس شلنج-ص٢٢-٢٧.
أنثروبولوجيا الجسد -دافيد لوبروتون-ص ١٥١.

3- The Philosophical Contradictions of the Transgender Worldview - by Ryan T. Anderson

٤-ديفيد غوفلر-الجنوسة-ص٢٧-٢٨-٢٩-٣٠-٣٥-٣٦.

5- The corrosive impact of transgender ideology - Joanna Williams, p. 31

6- When harry became sally – Ryan T. Anderson, p. 147

7- When harry became sally, p. 146

8- When harry became sally, p. 146-147

9- When harry became sally, p. 148-149

10-when harry became sally, p. 149-150